

《外國語文研究》第二十八期 抽印本
2018年六月 1~41頁

**實用詞彙的層級：
從伊本·巴圖拓遊記中
尋找語意發展的話語**

**Levels of Pragmatic Lexicon:
Search in Semantic Development Discourse
in the Travels of Ibn Battutah**

曾家齊

Ghazi Khader Al-Zanahreh

實用詞彙的層級：

從伊本·巴圖拓遊記中尋找語意發展的話語

曾家齊

摘要

本論文研究伊本·巴圖拓遊記中的語意發展，試圖尋找阿拉伯語言史研究的缺失，特別是從掌控語言和社會關係的現代語言學發現及規則，來看語意學的發展。

本論文耙梳語意發展各方面和原因，顯示詞彙產生新義的原因。本論文也指出某些詞在伊本·巴圖拓遊記和傳統阿拉伯語詞彙語意發展的不同階段，並指出在伊本·巴圖拓時代之前的語意發展。

本論文也將探討伊本·巴圖拓遊記中語意發展和當時政治、宗教和社會情況的關係，希冀證明當時在印度的波斯語主宰優勢影響某些詞彙的語意變化。

關鍵詞：語意發展，伊本·巴圖拓，詞彙，遊記，社會語言學

Levels of Pragmatic Lexicon: Search in Semantic Development Discourse in the Travels of Ibn Battutah

Ghazi Khader Al-Zanahreh

Abstract

This paper studies the semantic development in the Travels of Ibn Battutah, in an attempt to make for the shortcomings in the study of the Arabic language history, especially in connection with the development of semantics in the light of Modern Linguistics findings and laws that control the relationship between language and society.

It enumerates the aspect and reasons of semantic development, and shows the factors that guide the new meanings of words that emerge out of it. This paper also shows the stages of the semantic development of some words through their usage in Ibn Battutah's Travels versus the traditional Arabic lexicon, and lashes at the semantic development that took place beyond Ibn Battutah's time.

This paper also tries to relate the semantic development as manifested in Ibn Battutah's Travels to the political, religious and social conditions that entailed them, and tries to show how the linguistic dominance of Persian in India at that time influenced the semantic change of some words.

Key words: semantic development, Ibn Battutah, the lexicon, travels, sociolinguistics

مستويات المعجم التداولي :

بحث في خطاب التطور الدلالي في رحلة ابن بطوطة

غازي خضر الزناهرة

مُلخّص البحث

يدرس هذا البحث موضوع التطور الدلالي في رحلة ابن بطوطة الموسومة بـ«نُظْر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، في محاولة لسد النقص في تاريخ دراسة اللغة العربية، وبخاصة فيما يتصل بالتطور الدلالي في ضوء ما قرره علم اللغة الحديث وتوصل إليه من نتائج وقوانين تحكم الصلة بين اللغة والمجتمع.

ويرصد البحث مظاهر هذا التطور وأسبابه والعوامل التي تُوجّه دلالة الكلمة الجديدة الناشئة عن التطور الدلالي، ويكشف عن بعض حلقات التطور من خلال استعمالات ابن بطوطة وربطها بالمعجم العربي، والإلماح إلى التطور الذي أصاب بعض الألفاظ بعد زمن ابن بطوطة.

ويحاول البحث أيضا عقد الصلة بين التطور الدلالي في رحلة ابن بطوطة وبين الأوضاع السياسية والدينية والاجتماعية التي أفضت إليه، وبيان أثر البيئة اللغوية الفارسية في الهند في توجيه التطور الدلالي لبعض الألفاظ.

الكلمات المفتاحية: التطور الدلالي، ابن بطوطة، المعجم، الرحلة، علم اللغة الاجتماعي.

مستويات المعجم التداولي :

بحث في خطاب التطور الدلالي في رحلة ابن بطوطة

غازي خضر الزناهرة

1. المقدمة

يُعدّ التطور الدلالي من أهم القضايا اللغوية وأبرزها، والتي شغلت الدرس اللغوي وما تزال، لا سيّما أن موضوع تغير المعنى وأشكاله وأسبابه، وما يتدخل في حياة الألفاظ أو موتها قد استولى على اهتمام علماء اللغة في هذا المجال. وقد ارتبط الدرس الدلالي بالدرس اللغوي، لأن اللغة بمكوناتها هي الحامل الأبرز للمعنى، فأية دراسة للغة لا بدّ أن تتعرض لمعاني المفردات ودلالاتها، والتطور الدلالي يشكل، بالتالي، جزءاً من التطور اللغوي الذي يشمل قطاعات اللغة المختلفة وهي الصوت، والنحو، والصرف، والدلالة. ومن القوانين المقررة أن اللغة شأنها شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى تخضع لقوانين الحياة وسنن التطور.

وهذا البحث هو محاولة لسد النقص في تاريخ دراسة اللغة العربية، وخاصة فيما يتصل بالتطور الدلالي وذلك في ضوء ما قرره وتوصل إليه علم اللغة الحديث من نتائج وقوانين تحكم الصلة بين اللغة والمجتمع، ويعالج هذا البحث ظاهرة لغوية تتصل أكثر ما تتصل بالتغير والتطور على مستوى واحد من مستويات الدرس اللغوي، وهي ظاهرة التطور الدلالي في رحلة ابن بطوطة ومن ثمّ فإن هذا البحث يقوم على فكرة أساسية ومنهج عام.

أما الفكرة، فهي دراسة ظاهرة التطور الدلالي في رحلة ابن بطوطة¹ من خلال نماذج من الألفاظ التي وردت

¹ ابن بطوطة هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، وُلد سنة 703هـ/1304م، وتوفي سنة 779هـ/1377م، بدأ رحلاته التي استمرت زهاء ثمان وعشرين سنة عام 1326م، وشملت كل أرجاء العالم الإسلامي آنذاك، وأقام خلالها في الهند نحو ثماني سنوات، وسنتين ونصف السنة في جزر المالديف، وكان على معرفة جيدة باللغة الفارسية.

في رحلته، وبيان ما طرأ على تلك الألفاظ من تطور دلالي، وتحديد نوع تطوره ومحاولة تفسير هذا التطور وبيان أسبابه، وتتبع مراحلها وبيان أثر المجتمع في ظهوره وعقد المقارنات لإيجاد الصلة بين المعنى المعجمي والمعنى التداولي.

وأما المنهج الذي يقوم عليه البحث فهو المنهج الوصفي الذي يرافق توصيف التغير الحاصل على اللفظة وتعيين نوعه، وتقصي الجزئيات وجمع بعض أمثلة التطور المعنوي الدلالي ثم تصنيفها ودراستها، لتكوين صورة عامة شاملة عن الألفاظ التي أصابها التطور الدلالي، إضافة إلى المنهج التاريخي الذي يرافق دراسة حياة اللفظة وعرضها على المعاجم، وهذان المنهجان يقتضيهما البحث.

وقد عمل البحث على اقتباس الألفاظ التي أصابها التطور الدلالي كما جاءت في سياقاتها في الرحلة، والكشف عن المعنى الذي يقدمه السياق ومعارضته بالمعنى المعجمي، بهدف جلاء صورة الكلمات التي أصابها التطور الدلالي، وتحديد نوع التطور الذي أصاب اللفظة، وتصنيفها بحسب شكل تطورها، ثم ترتيبها هجائياً.

وقد اعتمد البحث على رحلة ابن بطوطة بتحقيق الدكتور عبد الهادي التّازي وجرى التوثيق منها في متن البحث بتدوين رقم الجزء ورقم الصفحة، وليس في الهامش للتقليل من عدد الهوامش التي قد تُثقل البحث وتزيد عدد صفحاته من غير طائل، ولا سيما أن طبيعة البحث تقتضي الإشارة إلى مواضع الكلمات التي أصابها التطور بشكل متلاحق.

2. التطور الدلالي Semantic Development

التطور المعنوي أو التطور الدلالي يقصد به تغير معاني الألفاظ، وهو ظاهرة مألوفة في كل اللغات يلمسها من يدرس مراحل نمو اللغة وأطوارها التاريخية، وهذا التطور يكشف عن الأحداث التاريخية التي مرت بها الأمة ويسلط الضوء على جوانب من تطور حياتها الاجتماعية، لأن دلالات ألفاظنا تتضمن كل ما لدينا من فنون وآداب وعلوم وحرف ومهن وكل مظاهر حياتنا العامة والخاصة. فاللغة ظاهرة اجتماعية، وهي كثيرة التبدل والتغير والتطور

تتأثر بما يتأثر به مجتمع متكلميها من النواحي العقلية والنفسية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية، ومبعث هذا اختلاف الزمن وتطور الحياة وظهور أشياء ومفاهيم ومسميات وأدوات جديدة، فيعمل أبناء اللغة على إيجاد ألفاظ تحمل المعاني المُستحدثة بطرق مختلفة منها: الاقتراض والاشتقاق والتطور اللغوي، فتعبر الكلمة المتطورة عن معنى جديد بجانب معناها القديم أو معانيها القديمة، وهذا يُدخل اللفظة في المعجم التاريخي ويجعلها موضوع البحث التاريخي.

وتغير المعنى ليس إلا جانباً واحداً من جوانب التطور اللغوي، فعناصر اللغة جميعاً؛ الأصوات والتراكيب والعناصر النحوية والأبنية الصرفية ودلالات الألفاظ، عرضة للتطور والتغيير والحركة، ولا خلاف في هذا، لكن الخلاف في سرعة الحركة من فترة زمنية إلى أخرى ومن قطاع لغوي إلى آخر².

3. عوامل التطور الدلالي وأسبابه

ثمة عاملان مؤثران في تطور دلالة الألفاظ، أولهما الاستعمال، ويتجلى دوره في استعمال الناس الألفاظ وتداولها في سائر شؤون حياتهم، ولما كان المعنى هو العلاقة المتبادلة بين اللفظ والمدلول كما يقول أولمان³، فإن هذا الاستعمال يخلل هذه العلاقة ويحركها ويؤثر فيها، فيصيب التغيير المعنى، ويبدأ الناس في الاختلاف في حدود الدلالة الهامشية للألفاظ وفي ظلالها⁴.

والعامل المؤثر الثاني الذي يؤدي إلى تطور الدلالة الحاجة، فاللغة هي أداة تعبير عن أفكار الناس وحاجاتهم، ولما كانت أفكار الناس وحاجاتهم في تطور مستمر، فإن الحاجة تدفع الناس إلى إيجاد ألفاظ تعبر عن الأشياء والمعاني والمخترعات التي تطرأ في حياتهم⁵.

² أولمان، ستيفن، دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال بشر، مكتبة الشباب - القاهرة، (1975)، ص 153.

³ المرجع السابق، ص 152.

⁴ أنيس، إبراهيم، دلالة الألفاظ، ط 5، مكتبة الإنجلو المصرية، (1984)، ص 134 و 135.

⁵ المرجع السابق، ص 145.

ولهذين العاملين، الاستعمال والحاجة ، عناصر ودوافع كثيرة تكمن خلف التغيرات في المعنى حصرها أولمان في ثلاثة عوامل رئيسة، هي العوامل اللغوية والتاريخية والاجتماعية، وهو يعترف أن هذه العوامل مجتمعة لا تستطيع أن تفسر حالات كثيرة من تغير المعنى⁶.

4. مظاهر التطور الدلالي

ويتخذ التطور الدلالي اتجاهين مختلفين، الأول: أفقي يظهر في ثلاثة أشكال، وأما الاتجاه الثاني فهو تغيير المعنى Change وهو الاتجاه الرأسي، ويتمثل في شكلين:

1.4. الاتجاه الأفقي

يتمثل الاتجاه الأفقي في مظاهر ثلاثة هي؛ الأول تعميم الدلالة أو توسيعها ويُعرف بالإنجليزية Widening، والمقصود به توسيع معنى الكلمة بإطلاق اسم الشيء الواحد على أشياء أخرى تشبهه أو تماثله، أو هو إطلاق اسم نوع خاص من أنواع الجنس على الجنس كله⁷، ولإبراهيم أنيس رأي في دور التعميم ومدى شيوعه في اللغات ذهب فيه إلى أن تعميم الدلالات أقل شيوعاً في اللغات من تخصيصها، وأقل أثراً في تطور الدلالات⁸.

والثاني وهو تخصيص الدلالة أو تضيقها ويُطلق عليه باللغة الإنجليزية Narrowing، ويُقصد به تضيق المعنى وقصره على ما هو خاص كمجموعة أشياء أو أفراد يقل عددها عما كانت عليه الكلمة في الأصل إلى حد ملحوظ، ويكون بإطلاق الأسماء العامة على مجموعة خاصة من الأشياء، أو بشكل أوضح هو

⁶ أولمان، استيفن، دور الكلمة في اللغة، ص 154-157، وعمر، أحمد مختار، علم الدلالة، ط 5، عالم الكتب، مصر، (1998)، ص 237 . وعبد الجليل، منقور، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (2001)، ص 74.

⁷ عمر، أحمد مختار، علم الدلالة، ص 243، وفندريس، جوزيف، اللغة، تعريب: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الإنجلو المصرية، (بلا تاريخ)، ص 258 ، وأولمان، ستيفن، دور الكلمة في اللغة، ص162 ، والزيادي، حاكم مالك، الترادف في اللغة، دار الرشيد ، بغداد، (1980)، ص23 .

⁸ أنيس، إبراهيم ، دلالة الألفاظ ، ص 154.

" تلك الحالة التي يطلق فيها الاسم العام، على طائفة خاصة، تمثل نوعها خير تمثيل في نظر المتكلم " ⁹.

أما المظهر الثالث للتطور الدلالي فهو تغيير مجال استعمال ، وهو أن ينتقل اللفظ من مجال دلالاته إلى مجال دلالة أخرى لعلاقة أو مناسبة واضحة بين الدالتين، " فالمعنى الجديد هنا ليس أكثر خصوصية من المعنى القديم ولا أعم، إنما هو مساوٍ له ويتخذ هذا الانتقال المجازَ سبيلاً له " ¹⁰.

وينتقل المعنى من مجال إلى آخر بطريق الاستعارة التي تقوم على المشابهة بين المدلولين القديم والجديد،

أو يتوسل طريق المجاز المرسل بالاعتماد على مجموعة من العلاقات بين المدلولين كالمجاورة والسببية أو الجزئية أو الكلية ونحو ذلك.

2.4. الاتجاه الرأسي

إذا كان المعنى في التطور الدلالي في الاتجاه الأفقي يتمدد أو يتقلص أو تثبت مساحته لكنه يقفز إلى معنى

جديد، فإن حركة المعنى في الاتجاه الرأسي تكون صعوداً أو هبوطاً في السلم الاجتماعي، وتتحصر في مجالين:

انحطاط المعنى أو الدلالة Degeneration ، فكثيراً ما تفقد بعض الألفاظ دلالتها وشيئاً من قيمتها

الاجتماعية في أذهان الناس بسبب كثرة دورانها على الألسنة وشيوعها لأسباب كثيرة منها السياسي والاجتماعي

والنفسى، فتفقد مكانتها بين الألفاظ التي تنال في المجتمع الاحترام والتقدير.

وفي الاتجاه المعاكس لانحطاط الدلالة يأتي رقي الدلالة Elevation الذي يصيب الألفاظ فترتفع قيمتها

الاجتماعية بين مستعملي اللغة.

وبعد هذا العرض السريع لمفهوم التطور الدلالي وأسبابه ومظاهره ومجالاته تكون الأسس النظرية لموضوع

التطور الدلالي قد تبينت، وهذه الصورة ستشكل قاعدة يقوم البحث على أساسها بدراسة التطور الدلالي في رحلة

⁹ فندريس، جوزيف، اللغة، ص 257. وينظر: أولمان، ستيفن، دور الكلمة في المعنى، ص162، وعمر، أحمد مختار، علم الدلالة، ص245.

¹⁰ قدور، أحمد، مبادئ اللسانيات، ط 3، دار الفكر ، دمشق، (2008)، ص 336 . وينظر: علم الدلالة، عمر، أحمد مختار ، ص 247 .

ابن بطوطة. وتوزعت الألفاظ التي تضمنها البحث على المعاني الدلالية التالية:

5. التخصيص والتضييق

وناليا أبرز أمثلة التخصيص الدلالي:

1.5 - الشَّريف

ويتحدث ابن بطوطة عن بداية رحلته من المغرب في طريق الحج ويذكر وصوله الى مدينة قسنطينة ، فيقول (1 ، 164): "فنزلنا خارجها وأصابنا مطر جود اضطرنا إلى الخروج عن الأخبية ليلا إلى دور هنالك، فلما كان من الغد تلقانا حاكم المدينة، وهو من الشرفاء الفضلاء يسمى بأبي الحسن".

ويقول أيضا (1: 424) عن نقيب الأشراف في العراق أبي غرة: "وكان الشريف أبو غرة قد غلب عليه في أول أمره العبادة، وتعلم العلم واشتهر بذلك، وكان ساكنا بالمدينة الشريفة كرمها الله، في جوار ابن عمه منصور بن جماز أمير المدينة، ثم أنه خرج عن المدينة واستوطن العراق، وسكن منها بالحلة، فمات النقيب قوام الدين بن طاووس، فاتفق أهل العراق على تولية أبي غرة نقابة الأشراف".

والشرف في اللغة هو العلو والمكان العالي، والشريف صفة على وزن فعيل، وهو من كان له آباء متقدمون في الشرف، ويجمع على أشرف¹¹. ولقب الشريف مختص بأبناء علي بن أبي طالب من فاطمة الزهراء رضي الله عنهما¹². وقد استمر سمة في مصر على أبناء فاطمة بنت النبي (ص) في زمن الأيوبيين والمماليك¹³.

¹¹ ابن منظور، محمد بن مكرم (711 هـ)، لسان العرب، ط 3 ، دار صادر، لبنان، (1414 هـ)، والفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (817 هـ)، القاموس المحيط، دار الحديث، مصر، تحقيق: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، (2008)، والرَّبيدي، محمد بن محمد (1205 هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق، علي شبري، دار الفكر، (بلا تاريخ)، مادة: شرف. وينظر أيضا: ابن السكيت، يعقوب بن إسحق (ت 244 هـ)، إصلاح المنطق، ط 4، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف ، مصر ، ص 321).

¹² القلقشندي، أحمد بن علي (ت 821 هـ) ، صبح الأعشى في كتابة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، (1922)، ج 6، ص 17.

¹³ الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر والتوزيع ، القاهرة، (1989)، ص 358.

ويلاحظ أن دلالة هذا اللفظ تطورت من الدلالة على كل من اتصف بالرفعة وكان له آباء متقدمون في الشرف ليضيق المعنى ويختص بأبناء علي بن أبي طالب من فاطمة الزهراء بنت النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا التطور تضيق للمعنى وتخصيص له.

ويبدو أن هذا اللقب كان لقباً عاماً في البلاد الإسلامية يطلق على أبناء علي بن أبي طالب من فاطمة رضي الله عنهما، فقد كان مستعملاً في المغرب كما لاحظنا في النص الأول، وأيضاً كان يستعمل في الهند، ومصر والعراق، والدكتور التازي محقق رحلة ابن بطوطة لم يكن دقيقاً في تعليقه في حاشية الصفحة على النص الأول بأن هذا النعت "في المغرب يدل على المعنى الذي تقصده كلمة السيد في المشرق"، فلفظ الشريف كان يطلق على أبناء فاطمة الزهراء في بلاد المشرق العربي ومغربه. والاستثناء الوحيد كانت بلاد فارس أو المناطق الشيعية الذين كانوا يستعملون لفظاً آخر هو السيد، ويذكر ابن حجر أن مجال هذا اللفظ كان أوسع في العراق إذ كان يطلق على العلويين وعلى العباسيين¹⁴.

2.5- الأَعْزَة والغُرَبَاء

يقول ابن بطوطة (3 : 75) : "ومن عادة ملك الهند السلطان أبي مجاهد محمد شاه إكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة. ومعظم خواصه وحُجابه ووزرائه وقضاته وأصهاره غرباء، ونفذ أمره بأن يُسمَى الغُرباء في بلاده بالأعزة. فصار لهم ذلك اسماً علماً".

ويقول أيضاً (3 : 166) : "والبلاد التي تقرب من الهند كاليمين وخراسان وفارس مملوءة بأخباره (يقصد سلطان الهند) يعلمونها حقيقة، ولا سيمًا جُوده على الغُرباء، فإنه يفضلهم على أهل الهند، ويؤثرهم ويجزل لهم الإحسان ويسبغ عليهم الإنعام ويوليهم الخط الرفيعة ويوليهم المواهب العظيمة، ومن إحسانه إليهم أن سمّاهم الأعزة ومنع أن يُدعون (كذا) الغُرباء".

¹⁴ ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت 852 هـ)، نزهة الألباء في الألقاب، ط 1، تحقيق: عبد العزيز بن محمد السديري، مكتبة الرشيد، الرياض، (1989)، ص 399.

الغريب في اللغة هو النازح عن وطنه وهو من ليس من القوم، ومن لا أهل له، فقد جاء في لسان العرب أن الغربة هي البعد والنزوح عن الوطن والغريب هو الوحيد الذي لا أهل عنده¹⁵. وأما العزيز فهو من له القوة والغلبة. ورجل عزيز: منيع لا يُغلب ولا يُقهر من قوم أعزة وأعزاء¹⁶.

والعزيز لفظ قرآني يتكرر كثيرا في القرآن الكريم صفة من صفات الله واسما من أسماء الله الحسنى، وقد ورد أيضا لقبا في سورة يوسف للوزير أو لقائد الشرطة، وتكررت لفظة العزيز أربع مرات، منها واحدة لقبا ليوسف عليه السلام. وتحكي السورة قصة يوسف عليه السلام وكيف جُلب إلى مصر عبدا، وعندما ظهرت نجابته وقدراته الإدارية والتنظيمية عينه سيده في منصب كبير في الدولة ولقبه بالعزيز كما يظهر من خطاب إخوته له: "قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۗ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ"¹⁷.

ولعل سلطان الهند استوحى من سورة يوسف فكرة إطلاق لقب الأعزة على الغُرباء الذين يأتون للعمل في مملكة الهند، بجامع أن هؤلاء الغُرباء تركوا بلادهم مثلما أن يوسف عليه السلام ترك بلاده، وأن نجابته وقدراته ومواهبه أهلته لبلوغ المراتب الرفيعة في الدولة فاستحق التكريم ولقب العزيز، وكذلك هؤلاء الغُرباء أهلتهم مواهبهم وقدراتهم لبلوغ المناصب العليا في الدولة، لذلك استحقوا لقب العزيز تكريما لهم وإشادة بفضائلهم وربما أيضا تعويضا لهم عن بعدهم عن أوطانهم. وفي هذا الاستعمال تضيق للمعنى وتخصيص له. فالمعنى اللغوي للعزيز يشمل كل من يتصف بالمنعة والقوة ومهابة الجانب، وأصبح هنا يدل على من جاء إلى الهند وتولى بعض المناصب الرفيعة من الغُرباء.

وقد يكون الدافع من إطلاق لفظ الأعزة على الغُرباء أمرين:

أولاً- أن السلطان محمد شاه تغلق كان صاحب مشروع سياسي يتمثل في بناء إمبراطورية قوية وفي سبيل

¹⁵ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، والفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مادة: غرب.

¹⁶ المرجعان السابقان، مادة: عزز.

¹⁷ القرآن الكريم، سورة يوسف، آية 78.

ذلك عمل على استقطاب الكفاءات العلمية والإدارية من مختلف بقاع العالم الإسلامي، حتى يستفيد منها في رقي بلاده، ولتشجيع هؤلاء على القدوم إلى مملكته قدم لهم امتيازات وحوافز مادية ومعنوية، وأطلق لقب الأعرزة عليهم حماية لهم من أبناء البلاد الأصليين الذين قد ينظرون لهم نظرة دونية، ويسبئون معاملتهم بدوافع عنصرية أو بدافع الغيرة والحسد.

ولأن هؤلاء الغرباء عرضة لأن يُساء لهم، قرر السلطان توفير الحماية، فأسبغ عليهم وصف الأعرزة، وهذه العزة تتحصل لهم من حماية السلطان، فمن أساء إلى أي منهم فكأنه أساء للسلطان صاحب العزة، ولهذا أصبحوا ذوي عزة ومنعة تحت جناح السلطان وحمايته، وقد قضى السلطان بالألأ يُنادوا إلا بهذا الاسم، ومن لا يمتثل عرض نفسه للعقوبة.

واستقطاب الكفاءات والأدمغة التي تحتاجها الدولة من الخارج لفتة ذكية من سلطان الهند، وقريب من هذا ما تقوم به الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية من استقطاب للكفاءات من كل دول العالم لتستفيد من علمهم وتمييزهم فتمنحهم الجنسية والعمل والراتب المناسبين دون أي تمييز ضدهم من أبناء البلاد الأصليين.

ويُعرف هذا الإجراء بالتمييز الإيجابي Positive Discrimination، ويعرفه الدكتور صبري خليل بأنه: "تمييز لفئة معينة من فئات المجتمع، تختلف عن باقي فئاته في العرق (الأقليات العرقية)، أو الدين (الأقليات الدينية)، أو الجنس (المرأة)، أو المقدرات الذاتية (ذوي الاحتياجات الخاصة)... من خلال اتخاذ جملة من الإجراءات التفضيلية، التي تعطي أفراد هذه الفئة الأولوية في المجالات المختلفة ... بهدف تحقيق المساواة (الفعلية) بينها وبين باقي فئات المجتمع"¹⁸.

ثانياً- ثمة وجه آخر للعناية بهؤلاء الأعرزة، وهو أن السلطان لم يكن يثق بالأمراء والمسؤولين المحليين، بسبب انخراط بعضهم في مؤامرات وثورات عليه، فوجد أنه يمكن التقليل من الاضطرابات والمخاطر التي قد

¹⁸ خليل ، صبري محمد ، مفهوم التمييز الإيجابي في الفكر السياسي والاجتماعي المقارن، ص 1.

يتعرض لها حكمه بالاعتماد على الغزباء الذين ليس لهم أطماع سياسية بسبب عدم وجود امتدادات محلية لهم تتمثل في الأقارب والأعوان، لذلك فمصلحتهم مع السلطان وفي استقرار الدولة ونظام الحكم فيها.

3.5 - الفقير والصوفي

ويتحدث عن زيارة قبر الولي أبي العباس الرفاعي (2: 9): "ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف وأخذ الفقراء في الرقص ثم صلّوا المغرب وقدموا السّماط، وهو خبز الأرز والسّمك والتمر فأكل الناس ثم صلّوا العشاء الآخرة وأخذوا في الذكر".

يقول أيضا (4: 70) عند الحديث عن دعوته لبعض الصوفية العائدين من زيارة قدم آدم في جزيرة سيلان: "وقدّم الطعام فأكلوا، ثم قرأ القراء بالأصوات الحسان، ثم أخذوا في السماع والرقص، وأعددت النار فكان الفقراء يدخلونها ويطأونها بالأقدام ومنهم من يأكلها كما تؤكل الحلواء إلى أن خمدت".

والفقر والفقر في اللغة: ضد الغنى، والفقير هو المحتاج الذي لا شيء له. والفقير أن يكون له ما يكفي عياله، وهو من يجد القوت¹⁹. والفقراء الذين يتحدث عنهم ابن بطوطة في النصين السابقين هم الصوفيون. وقد تكرر هذا المعنى في مواضع كثيرة من الرحلة.

والفقر عند الصوفية هو الافتقار إلى الله وفقر المخلوق إلى خالقه، ولا يجد غير الله تعالى ولا يستغني إلا به ولا يستريح إلا بالحضور معه، وهو أساس التصوف، على معنى أن الوصول إلى رتب التصوف طريقه الفقر، دون أن يعني هذا بالضرورة الفقر إلى المال أو إلى الرزق²⁰. وهم يستندون في هذا المعنى إلى قوله تعالى: "يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ"²¹.

¹⁹ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، والفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، والزبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس، مادة: فقر

²⁰ العجم، رفيق، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، ط 1، مكتبة لبنان، (1999)، ص 720.

²¹ القرآن الكريم، سورة فاطر، آية 15.

وقد يجمع الصوفي الحاجتين معاً؛ الحاجة المعنوية إلى الله، والحاجة المادية إلى المال والرزق. فجرى

تخصيص دلالة اللفظ من شموله كل فقير إلى فئة محددة من الفقراء هم الصوفية.

4.5 - القائم - الثائر

ويتحدث ابن بطوطة عن ثورة أحد الولاة على سلطان الهند، يقول (3: 209): "وكان الشريف إبراهيم

المعروف بالخريطة دار وهو صاحب الكاغد والأقلام بدار السلطان واليا على بلاد حانسي وسرسني لما تحرك

السلطان إلى بلاد المعير، وكان أبوه هو القائم ببلاد المعير الشريف أحسن شاه، فلما أرجف بموت السلطان طمع

إبراهيم في السلطنة".

ويتحدث عن إخبار الجواسيس السلطان بهروب عَيْن المُلك إلى الضفة الأخرى من النهر تمهيدا للثورة على

السلطان (3: 212): "وكان للسلطان مملوك يعرف بابن شاه وهو عَيْن على عَيْن المُلك المذكور فأخبر السلطان

بفراره وجوازه النهر.... وكان أمراء خراسان والغرباء أشد الناس خوفا من هذا القائم لأنه هندي، وأهل الهند مبغضون

في الغرباء لإظهار السلطان لهم فكرهوا ما ظهر له".

ويتحدث عن استعداد السلطان لمحاربة عَيْن المُلك (3: 213): "ولما كان اليوم الثالث بلغ الخبر بأن

عَيْن المُلك الثائر أجاز النهر فخاف السلطان من ذلك وتوقع أنه لم يفعله إلا بعد مراسلة الأمراء الباقين مع

السلطان".

وكلمة القائم في استعمال ابن بطوطة تعني الثائر على السلطان، والقائم اسم فاعل من الفعل قام ولا تذكر

المعاجم العربية من معاني " قام " ما يشير إلى معاني الثورة أو الخروج على الحاكم. ويلاحظ أن ابن بطوطة

يستعمل مصطلح "الثائر" أيضا، كما في الاقتباس الثالث، ليبدل به على المعنى ذاته. ويبدو أن مصطلح القائم كان

أكثر استعمالا في بيئة الهند. واللافت للنظر أن كلمة "القائم" لا تنشي بأي دلالة سلبية للذي يثور على الحاكم أو

السلطان، كما نجدها في بعض الكلمات الأخرى نحو: العاصي والعصاة والعصيان أو الخارج على السلطان أو

المتمرد أو التمرد أو الثورات أو الفتن.

ويترجح لدينا أن لفظ "القائم" ربما كان مترجما عن الفارسية ولم يستوعب ابن بطوطة ضلاله السلبية بسبب عدم تمكنه من الفارسية، ويدفع إلى هذا الترجيح أمران؛ الأول: أنه يستعمل لفظ "القائم" عاريا عن حرف الجر الذي قد يشي بتضمين اسم الفاعل " القائم " معنى فعل آخر نحو: الخارج على الحاكم، وهو الفعل الأكثر استعمالا في مثل هذه السياقات. والثاني: أن اللغة الفارسية تعبر عن معنى الثورة باستعمال تعبير مركب هو " قيام كرد". وقيام لفظ عربي اقترضته اللغة الفارسية واستعملته مصدرا بمعنى الاضطراب أو الثورة ، و" كرد" لفظ فارسي يستعمل لتحويل المصدر إلى فعل، ومعنى الكلمتين معا قام بثورة أو ثار²².

ولا شك أن الناس هناك أثناء ثورة عيين الملك كانوا يتداولون " قيام كرد" كثيرا ، ولما أراد ابن بطوطة أن يعبر عن معنى الشخص الذي قام بالثورة، اشتق قائم من قيام.

وفي استعمال لفظ " القائم" للدلالة على الثائر أو المتمرد على نظام الحكم تطور دلالي، وفي هذا تضيق لمعنى الكلمة أو تخصيص له.

5.5 - مولانا

ويتحدث ابن بطوطة عن لقائه الأول بسلطان الهند، يقول (3 : 229) : " واستقبلني أمير حاجب وهو ابن عم السلطان المسمى بفيروز ثم قال ملك الندماء : بسم الله ، مولانا بدر الدين، وكانوا يدعونني بأرض الهند بدر الدين²³، وكل من كان من أهل الطلب إنما يقال له مولانا".

وفي موضع آخر من الرحلة (2 : 28) يقول: "... بعث إليّ السلطان (السلطان أفراسياب سلطان إيدج في بلاد فارس) رسوله فسألني عن حالي وبلادي ثم جاء فقيه كبير هو رئيس فقهاء تلك البلاد، فقال لي

²² قيام + كرد <http://www.vajehyab.com/?q>.

²³ كان ثمة صلة بين لقب بدر الدين وبين اسم محمد وبين مهنة القضاء، فاسم محمد كان يغلب التلقب فيه ببدر الدين في حالة القضاة والعلماء، انظر: القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، ج 5 ، ص 489.

السلطان: هذا مولانا فضيل، والفقير ببلاد الأعاجم كلها إنما يُخاطب بمولانا"

وقد ذكر لسان العرب²⁴ ستة معانٍ للمولى وأوصلها تاج العروس إلى واحد وعشرين معنى²⁵ أشهرها: المُعْتَق

والمُعْتَق وابن العم والقريب والناصر أو الحليف والذي يسلم على يدك ويواليك والمولى في الدين وهو الولي الذي

يلي أمرك. والمعنى الوارد في هذا النص هو إطلاق لفظ مولانا على الفقهاء والمشتغلين بالعلوم الشرعية.

لعل المعنى الذي تطور هو معنى المولى في الدين وهو الولي الذي يلي أمرك، ذلك أن الفقيه يسعد الناس

ويسعفهم ببيان الأحكام الشرعية لهم فيبعدهم عن الضلال ويهديهم إلى سواء السبيل، استشعاراً لمعنى قوله تعالى:

ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم²⁶، أي أن الله ولي المؤمنين وناصرهم. وقد تخصص

هذا المعنى ليدل على الفقهاء والمشتغلين بالعلوم الشرعية بعد أن كان يدل على كل من يواليك ويناصرك ويبعدك

عن الضلال.

ومما يحسن ذكره أن لفظ مولانا كان يستعمل في مصر لقباً في مخاطبة السلطان، ويُحذر الكتاب من

استعمال لقب سيدنا عوضاً عنه في مخاطبة السلطان بحجة أن لفظ "سيدنا" من الألقاب الدينية والديوانية²⁷. ويذكر

أن هذا لفظ "مولانا" جرى به الاستعمال في مصر في مرحلة لاحقة ليدل على المعنى ذاته، أي المشتغلين بالعلوم

الشرعية والمشايخ. ولعل كلمة "مُولَا" التي تُطلق على المشايخ والفقهاء في الهند وإيران وآسيا الوسطى مأخوذة

من كلمة "مولانا".

6.5 - الناظر ومسؤول الأوقاف

يقول ابن بطوطة (3: 37) في حديثه عن قبر قُتْم بن العباس في سمرقند: "وكان الناظر في كل حال هذا

الضريح المبارك وما يليه حين نزولنا به الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن يوسف بن

²⁴ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة: ولي.

²⁵ الرِّيْدي، محمد بن محمد، تاج العروس، مادة: ولي.

²⁶ القرآن الكريم، سورة محمد، آية 11.

²⁷ الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص 84، 85.

الخليفة المستنصر بالله العباسي".

ومن معاني الناظر في اللغة العين نفسها، والحافظ والأمين²⁸. ويقصد ابن بطوطة بالناظر في النص السابق

الموظف الذي يختص بإدارة الأوقاف المخصصة للمساجد والزوايا.

وتطورت دلالة هذه الكلمة من الحافظ والأمين الذي يتولى رعاية شيء اعتماداً على نظره إلى الوظيفة التي

يتولاها شخص ما، يقوم بإدارة بعض الأوقاف كالزوايا والمساجد وغيرها، وإدارة أموالها وحساباتها ومصروفاتها²⁹.

وهذا التطور هو تخصيص للمعنى.

ويبدو أن وظيفة ناظر الأوقاف كانت تشمل الإشراف المالي في الأوقاف إضافة إلى القيام بإدارة مرافق

الوقف وتطويره³⁰، وقد تطور معنى اللفظ في الدولة العثمانية ليؤدي معنى وزير، فكان يقال ناظر الحربية وناظر

الحقانية وناظر المعارف.

7.5 - النقيب

ويقول ابن بطوطة (3 : 55) متحدثاً عن مدينة مشهد الرضا : " وكان بها الطاهر محمد شاه، والطاهر

عندهم بمعنى النقيب عند أهل مصر والشام والعراق، وأهل الهند والسند وتركستان يقولون السيد الأجل".

والنقيب صفة مشبهة من الفعل نَقَبَ ويجمع على نُقباء، وهو عريف القوم وشاهدهم ورأسهم وضمينهم وهو

الكفيل والأمين. والنقيب كالعريف على القوم، المقدم عليهم، الذي يتعرف أخبارهم، ويُنبأ عن أحوالهم، أي يُفتش.

والنقيب : الرئيس الأكبر³¹.

والنقيب هنا هو رئيس تجمُّع الأفراد المتحدرين من نسل علي بن أبي طالب. وكان من مهمته التأكد من

انحدر طالب النقابة من نسل علي بن أبي طالب وإصدار شهادة بذلك ورفض من ادّعاها بغير حق ومعاقبته.

²⁸ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، والزبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس، مادة : نظر.

²⁹ القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، ج5، ص 465.

³⁰ بركات، مصطفى، الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب، القاهرة، (2000)، ص 223 .

³¹ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، والزبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس، مادة : نقب.

وتطورت دلالة هذه الكلمة من عريف القوم ورئيسهم وكفيلهم لتختص برئيس الأشراف الذين ينحدرون من

نسل فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم. ونوع هذا التطور هو تضيق المعنى والتخصيص له.

ويجدر بالذكر أن لفظ النقيب تطور في الاستعمالات المعاصرة ليعني الشخص الذي يُنتخب ليمثل التجمع

المهني أو الحرفي أو العمالي المعروف باسم النقابة.

6. التعميم والتوسيع

وتاليا أهم أمثلة التعميم الدلالي:

1.6- أسطون

ويقول ابن بطوطة في حديثه عن الشيخ جمال الدين السّاويّ في مصر (1: 199) إنه: "كان جميل

الصورة حسن الوجه فعلفت به امرأة من أهل ساوة وكانت ترأسله وتعارضه في الطرق وتدعوه لنفسها، وهو يمتنع

ويتهاون، فلما أعيها أمره دست له عجوزا تصدّت له إزاء دار على طريقه إلى المسجد وبيدها كتاب مختوم، فلما

مرّ بها قالت له: يا سيدي أحسن القراءة؟ قال: نعم، فقالت له: هذا الكتاب وجهه إليّ ولدي وأحبّ أن تقرأه عليّ،

فقال لها: نعم، فلما فتح الكتاب قالت له: يا سيدي إنّ لولدي زوجة وهي بأسطون الدار، فلو تفضلت بقراءته بين

بابي الدار بحيث تُسمعها: فأجابها لذلك، فلما توسط بين البابين غلقت العجوز الباب، وخرجت المرأة وجواربها

فتعلّقن به وأدخلته إلى داخل الدار".

وفي حديثه عن فخر الدين القبطي يقول (1 : 216): "ومن عادته أن يجلس عشي النهار في مجلس له

بأسطون داره على النيل ويليه المسجد، فإذا حضر المغرب صلى في المسجد وعاد الى مجلسه وأوتي بالطعام،

ولا يمنع حينئذ أحدا من الدخول كائنا من كان".

وتأتي الأُسْطُوان في اللغة على معنيين: الرجل الطويل الرَّجُلين والظَّهر، والسارية³². وتجمع الكلمة على أساطين. ونقل صاحب التاج عن الأزهري أن الأُسْطُوان كلمة فارسية الأصل مُعَرَّب أستون، وأستون كلمة فارسية قديمة تُلفظ أُسْتُون وتعني عمود الخيمة أو البناء³³.

ولم يرد لفظ الأُسْطُوان في المعاجم العربية بالمعنى الذي ذكره ابن بطوطة. فالمعنى الذي ذكره ابن بطوطة هو دهليز البيت أو مجازه ويكون كالرواق المسقوف معقودا على أعمدة يتخذ في بيوت الأغنياء الكبيرة وقصورهم ويستعمل لانتظار الزائرين عادة³⁴.

ويلاحظ هنا أن المعنى انتقل من سارية البناء أو عموده إلى دهليز البيت أو الرواق المسقوف المعقود على أعمدة يتخذ في بيوت الأغنياء الكبيرة وقصورهم، ويستعمل لانتظار الزائرين أو الممر أو مجاز البيت، وهذا الانتقال هو تعميم دلالة اللفظ وتوسيعها لتشمل معنى أوسع من ذي قبل. فالأُسْطُوان هو السارية أو العمود، والسارية لا تكون إلا جزءا يقوم عليه البناء فجري إطلاق لفظ الأُسْطُوان على الرواق أو الدهليز المغطى القائم على مجموعة من الأُسْطُوان من باب إطلاق الجزء على الكل. وهكذا أضيف معنى جديد إلى معنيي الكلمة.

وربما أضيف إلى الكلمة معان أخرى جديدة، فقد جاء في المعجم الوسيط³⁵: "الأُسْطُوانة في الهندسة: جسم صلب ذو طرفين متساويين على هيئة دائرتين متماثلتين تحصران سطحاً ملفوفاً بحيث تمكن متابعته بخط يتحرك موازياً لنفسه وينتهي طرفاه في محيطي هاتين الدائرتين. وكل جسم أو شيء ذي شكل أسطواني يُسمى أُسْطُوانة أيضاً. والقرص الذي تسجل فيه أصوات الغناء أو الموسيقى وغيرهما".

³² ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، والفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، والرَّيْدِي، محمد بن محمد، تاج العروس، مادة: سطن.

³³ محمد، دهخدا، فرهنگ دهخدا (معجم دهخدا)، دار أمير كبير، (2004)، مادة: أُسْتُون.

³⁴ انظر: النعيمي، سليم، ألفاظ من رحلة ابن بطوطة، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الرابع والعشرون، 1974، القسم الأول، (ص 19-50)، ص 26، 27، ودوزي، رينهارت، تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم النعيمي، دار الرشيد، بغداد، (1980)، مادة: اسط.

³⁵ مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، ط 4، مكتبة الشروق الدولية، مصر، (2004)، مادة: اسط.

ويلاحظ أن المعنى تطور إلى هذه المعاني لصلة المشابهة بين الشكل الدائري للسارية وبين الأسطوانة الهندسية، وكذلك القرص الذي تسجل فيه الأصوات. وجدير بالملاحظة أن هذا المعنى يُجمع على أسطوانات، وتُستعمل أساطين، أيضاً، جمعا لأسطوان لوصف للثقاق والمبرزين من أهل العلم والسياسة والادب، وقد أصاب اللفظ تطور دلالي بتغيير مجال الاستعمال للمشابهة بين دور الأسطوان في تقوية البناء عند استناده إليه وبين رجل العلم والأدب والسياسة الذي يركن إليه في هذه المجالات .

2.6 - التُّرْبَةُ

ويتحدث ابن بطوطة عن قرافة مصر ومزاراتها (1: 205، 206): "ومنهم (يقصد أهل مصر) مَنْ يبني الزاوية والمدرسة إلى جانب التُّرْبَةِ، ويخرجون في كل ليلة جمعة إلى المبيت بها بأولادهم ونسائهم ... ومنها تُّرْبَةُ السيدة نفيسة بنت زيد بن علي بن الحسين بن علي عليهم السلام ... وهذه التُّرْبَةُ أُنِيقَةُ البناء.... ومنها تُّرْبَةُ الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي".

والتُّرْبَةُ هنا تعني الضريح وهو غرفة أو قبة يدفن فيها الميت ويقام فيها قبره. وهي كلمة مُؤَلَّدة كما يقول الدكتور النعيمي³⁶، والمعاجم العربية تذكر التُّرْبَةَ مؤنثا للتُّرَابِ وأن تُّرْبَةَ الإنسان رَمْسُهُ³⁷. ويلاحظ هنا أنه قد جرى توسيع المعنى بإطلاق الجزء على الكل، فالتُّرَابِ الذي يكون فيه الميت جزء من الضريح، فالعلاقة بين التُّرَابِ والضريح جزئية، فجرى إطلاق الجزء على الكل وبذلك تم توسيع المعنى.

3.6 - الجُمُعَةُ والأسْبُوعُ

يقول ابن بطوطة (1: 290): "ومن عاداتهم (يقصد الأتراك) بتلك البلاد أن يخبزوا في يوم واحد من الجُمُعَةِ، يُعَدُّون فيه ما يقوتهم سائرهما".

³⁶ النعيمي، سليم، ألفاظ من رحلة ابن بطوطة، القسم الأول، ص 43 ، 44.

³⁷ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، والفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، والرَّيْبِدِي، محمد بن محمد، تاج العروس، مادة: تَرِب.

والجُمعة كما هو معروف أحد أيام الأسبوع، فهو جزء من الأسبوع، غير أنّ ابن بطوطة استعمل هذا اللفظ للدلالة على سائر أيام الأسبوع، أي أنه أطلق الجزء على الكل، وهذا تعميم لدلالة اللفظ. وهذا الاستعمال شائع ومعروف في بلاد الشام.

4.6- الخُراسانيون

ويتحدث ابن بطوطة عن ترتيب الاحتفالات بالعيد في مملكة الهند، يقول (3: 158): "ويركب قاضي القضاة صدر الجهان كمال الدين الغزنوي، وقاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي، وسائر القضاة وكبار الأعيان من الخُراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة. كل واحد منهم على فيل، وجميع الغُرباء عندهم يُسمّون الخُراسانيين".

والخُراساني لغة واصطلاحاً هو المنسوب إلى خُراسان. وخُراسان التاريخية منطقة جغرافية واسعة كانت تشمل شمال غرب أفغانستان وأجزاء من جنوب تركمانستان، إضافة لمقاطعة خراسان الحالية في إيران، غالبية سكان الإقليم من الفرس والبشتون والبلوش مع وجود للترك في الأقسام الشمالية³⁸.

ويُفهم من الاقتباس السابق أن الغُرباء هم من الخُراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة، وأن أقرب نقاط العبور البرية إلى الهند، بالنسبة إلى البلاد الإسلامية، كانت منطقة خراسان المحاذية للهند من الجهة الغربية، ومعظم الداخلين إلى الهند هم خُراسانيو الأصل، ومن هنا كان أهل الهند يطلقون لفظ الخُراسانيين على كل من جاء إلى الهند من الغُرباء؛ خُراسانيين وغير خُراسانيين، من باب إطلاق اسم الجزء على الكل. وهذا تعميم للمعنى وتوسيع له.

³⁸ https://ar.wikipedia.org/wiki/خراسان_الكبرى

5.6 - السَّيِّدُ

ويتحدث عن تولية السلطان له منصب القضاء، يقول (3: 233): "وقال لي خُداوند زاده بالعربي: ما تقول

أنت يا سيدي؟ وأهل تلك البلاد لا يدعون العربي إلا بالتسويد، وبذلك يخاطبه السلطان تعظيماً للعرب".

والسيد في اللغة لقب يطلق على الربِّ والمالك والزعيم والشريف والفاضل والكريم والحليم ومُحْتَمِلِ أذى قومه

والزوج والرئيس والمُقَدَّم³⁹. وقد ورد عند ابن بطوطة باعتباره لقباً يطلقه الهنود على العرب خاصة احتراماً منهم

للعنصر العربي الذي ينتمي إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ولصلتهم بالإسلام وفضلهم في حمله ونشره في سائر

بقاع الأرض. وفي هذا الاستعمال توسيع للمعنى الدلالي، فاللفظ كان يشمل من يتصف بصفات الزعامة والسيادة

والحلم والكرم والملك فتوسع المعنى بأن كلمة سيد أصبحت وكأنها مرادفة للعربي في مملكة الهند.

ويذكر أن هذا اللقب سيد مضافاً إلى ضمير جمع المتكلمين، "سيدنا" كان يستعمل في مصر وبلاد الشام

في عصر الأيوبيين والمماليك لقباً في مخاطبة السلطان⁴⁰.

6.6 - كَنَيْسَة

يرد لفظ كَنَيْسَة في مواضع كثيرة من رحلة ابن بطوطة ويريد به أربعة معان:

1 - كَنَيْسَة: معبد الهندوس (4: 90)

"ورحلنا من هنالك يومين إلى مدينة دِيَنُور وهي مدينة عظيمة على البحر يسكنها التجار، وبها الصنم

المعروف بديَنُور في كنيسة عظيمة فيها نحو الألف من البراهمة والجُوكية ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود"

2 - كَنَيْسَة: معبد الوثنيين (1: 330)

ويتحدث عن كنيسة في إحدى قرى دمشق: "وفي شرقي البلد قرية تعرف ببيت إلهية وكانت فيها كنيسة

³⁹ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، والفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، والزبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس، مادة: سود.

⁴⁰ الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص 348.

يقال: إن أزر كان ينحت فيها الأصنام فيكسرهما الخليل عليه السلام ."

3- كَنِيْسَة: معبد البوذيين(4: 7)

عندما أرسل ملك الصين إلى سلطان الهند وفدا محملا بالهدايا يطلب السماح له ببناء معبد هدمه المسلمون، أجابه السلطان: "بأن هذا المطلب لا يجوز في ملة الإسلام إسعافه، ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين إلا لمن يعطي الجزية، فإن رضيت بإعطائها أبحننا لك بناءه والسلام" .

4- كَنِيْسَة النصارى(2 : 254، 255)

وفي حديثه عن كنيسة أيا صوفيا، يقول: " وإنما نذكر خارجها، وأما داخلها فلم أشاهده، وهي تسمى عندهم أيا صُوفيا ... وهي من أعظم كنائس الروم وعليها سور يطيف بها، فكأنها مدينة وأبوابها ثلاثة عشر بابا... ولا يدعون أحدا يدخلها حتى يسجد للصليب الأعظم عندهم الذي يزعمون أنه بقية من الخشبة التي صُلب عليها شبيه عيسى عليه السلام"

والكنيسة في معجم الصحاح مكان عبادة النصارى⁴¹، وفي لسان العرب، مكان عبادة اليهود والنصارى وفي القاموس المحيط وتاج العروس هي مُتَعَبِدُ اليهود أو النصارى أو متعبد الكفار مطلقا.

ويظهر أن لفظ الكنيسة قبل الإسلام كان لفظا عاما يدل على أماكن العبادة عند اليهود والنصارى وغيرهم، لكن هذا اللفظ تخصص في الإسلام، وأصبح يطلق على أماكن العبادة عند أهل الديانات السماوية؛ اليهود والنصارى، ثم تخصص أكثر من ذلك، فأصبح يطلق على مُتَعَبِدِ النصارى حسب. وقد تحدث القرآن عن أماكن العبادة عند اليهود والنصارى، دون أن يستعمل لفظ كنيسة، قال تعالى: " وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمْتُمْ صَوَامِعُ وَيَبِيعُ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ"⁴²

⁴¹ الجوهري، إسماعيل بن حماد (393هـ)، تاج اللغة وصحاح العربية (الصحاح)، ط 2، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، لبنان، (1979)، مادة: كنس.

⁴² القرآن الكريم، سورة الحج، آية 40.

، إلا أنّ لفظ الكنيسة ورد في عهد الأمان الذي أعطاه الخليفة عمر بن الخطاب إلى نصارى القدس عندما فتحها المسلمون عام 638 للميلاد، أمّتهم فيه على كنائسهم وممتلكاتهم. وجاء في عهد الأمان: "هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين، أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمتها وبريئتها وسائر ملتها. أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكروهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود"⁴³. ولفظ الكنيسة في استعمال ابن بطوطة أصابه التعميم والتوسيع.

ويظهر أن لفظ الكنيسة في المغرب على عهد ابن بطوطة ظل يُستعمل بدلالته العامة، أي إطلاق اللفظ على أماكن العبادة عند غير المسلمين، وهذا ما لاحظته صاحب تكملة المعاجم العربية⁴⁴.

7. تغيير مجال الاستعمال

وتاليا أبرز أمثلة تغيير مجال الاستعمال التي وردت في رحلة ابن بطوطة:

1.7 - الرِّبَاط

ويتحدث عن زيارته لقبر الولي أحمد الرفاعي، فيقول (2 : 9): "ونزلنا مدينة واسط أقامت القافلة ثلاثا بخارجها للتجارة فسبح لي زيارة قبر الولي أبي العباس أحمد الرفاعي، وهو بقرية تعرف بأُم عبيدة على مسيرة يوم من واسط فطلبت من الشيخ تقي الدين أن يبعث معي من يوصلني إليها، فبعث معي ثلاثة من عرب بني أسد ، وهم قُطّان تلك الجهة، وأركبني فرسا له وخرجت ظهرا فبتّ تلك الليلة بحوش بني أسد، ووصلنا في ظهر اليوم التالي إلى الرواق، وهو رباط عظيم فيه آلاف الفقراء"

وقال أيضا (1 : 205): "ومن المزارات الشريفة المشهد المقدّس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن علي

⁴³ الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك (ت 310 هـ)، ط 2، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، (بلا تاريخ)، الجزء الثالث، ص 609.

⁴⁴ دوزي، رينهارت، تكملة المعاجم العربية، مادة : كنس

عليهما السلام ، وعليه رباط ضخم".

ومن معاني الرباط في اللغة ملازمة ثغر العدو، والرباط هو ثكنة عسكرية محصنة تقام على الحدود⁴⁵. والرباطات في بداية أمرها كانت ثكنات عسكرية محصنة تبنى على حدود الدولة، ويقام بها المحاربون بالإضافة إلى المتطوعين من أهل التقوى، بتعبير دوزي⁴⁶ ليجاهدوا في سبيل الله ويحصلوا على الأجر والثواب الذي يحصل عليه المجاهدون ضد الكفار، وكانوا يقضون أوقات فراغهم بالعبادة.

وقد استعمل ابن بطوطة هذا اللفظ في معنى جديد، وهو البناء الكبير يبنى على ضريح المشهورين من شهداء وأولياء وعلماء، ولعل الكلمة أستعملت بهذا المعنى عند المغاربة كما لاحظ ذلك الدكتور النعيمي⁴⁷.

وقد انتقلت دلالة هذه الكلمة من الرباط الذي يربط فيه المقاتلون على الثغور والحدود لحمايتها من الهجمات المفاجئة التي قد يقوم بها الأعداء إلى معنى البناء الكبير يبنى على ضريح المشهورين من شهداء وأولياء وعلماء الذي يلجأ إليه المتصوفة للإقامة فيه. وهذا الانتقال الدلالي يشير إلى التطور التاريخي الذي أصاب الرباط نفسه، فقد كان الرباط موقعا عسكريا متقدما على الحدود وكان يقيم فيه المقاتلون بالإضافة إلى بعض المتطوعين من أهل التقوى ليجاهدوا في سبيل الله، وكانوا يقضون أوقات فراغهم بالعبادة. فكانت حياة هؤلاء عبادة وجهادا ومجاهدة، ولربما استشهد في أحد هذه الرباطات أحد الأولياء فبُني على ضريحه بناء اتخذه المتصوفة ملجأ لهم يقيمون فيه ويمارسون فيه العبادة ومجاهدة النفس. أو لعلهم أطلقوا على الأبنية التي تقام على أضرحة الأولياء لفظ رباط للشبه بين هذه الأبنية التي اتخذت أماكن للعبادة ومجاهدة النفس وبين تلك الرباطات التي كانت مُعدّة لإقامة المجاهدين الذين يقضون وقتهم في الجهاد وفي العبادة، فتشابهت الوظيفتان فأطلق اسم الرباط على كل واحد منهما بسبب التشابه الوظيفي. فالتطور الدلالي هنا هو تغيير مجال الاستعمال عن طريق المشابهة.

⁴⁵ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، والفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، والزبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس، مادة: ربط.

⁴⁶ دوزي، رينهارت، تكملة المعاجم العربية، مادة: ربط.

⁴⁷ انظر: النعيمي، سليم، ألفاظ من رحلة ابن بطوطة، القسم الثاني، ص 21.

2.7 - مَشْهَد

ويتحدث عن مدينة كربلاء، فيقول (2: 57): "ثم سافرنا إلى كربلاء مشهد الحسين بن علي عليهما السلام، وهي مدينة صغيرة تحقها حدائق النخل ويسقيها ماء الفرات. والروضة المقدسة داخلها، وعليها مدرسة عظيمة، وزاوية كريمة، فيها طعام للوارد والصادر، وعلى باب الروضة الحُجَاب والقَوْمَة لا يدخل أحد إلا عن إذنهم فيُقْبَل العتبة الشريفة وهي من الفضة وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة".

ويتحدث عن مشهد الرضا في بلاد فارس (3: 52): "ثم سافرنا من الجام إلى مدينة طوس وهي من أكبر بلاد خراسان وأعظمها، بلد الإمام الشيرازي أبي حامد الغزالي رضي الله عنه. وبها قبره. ورحلنا منها إلى مدينة مشهد الرضا، وهو علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم"

ويقول أيضا (1: 187): "فنزلنا ببزجة المَرْجُوم وهو مَشْهَد على الطريق عليه كوم عظيم من الحجارة، وكل من مرَّ به رَجَمَهُ."

والمَشْهَد في اللغة هو الجمع من الناس ومَحْضَرَهُمْ، وهو مكان اجتماع الناس⁴⁸. والمقصود بكلمة مَشْهَد في استعمال ابن بطوطة هو القبر. لم يرد في المعاجم العربية استعمال مَشْهَد بمعنى القبر أو المزار. فقد ورد في المعجم الوسيط⁴⁹ أن الكلمة تعني الضريح وهي محدثة، ويعلق الدكتور النعيمي على هذا الاستعمال بأن "كلمة مَشْهَد لا تدل على المعنى المتعارف عليه اليوم، وهو قبور الشهداء من آل البيت، بل يستعملها ابن بطوطة ليدل بها على القبر مطلقاً"⁵⁰.

⁴⁸ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، والفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مادة: شهد.

⁴⁹ مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، مادة: شهد.

⁵⁰ النعيمي، سليم، ألفاظ من رحلة ابن بطوطة، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد السادس والعشرون، 1975، القسم الثالث، (ص

وجاء في المعجم الفارسي⁵¹ أن مَشْهَدَ : محل الاستشهاد، وغالبا يُدفن الشهيد في محل استشهاده، ويبنى عليه ضريح يُسمى المَشْهَدَ، ويُذكر أن مدينة مشهد الإيرانية كان اسمها "طوس" واستبدل بها اسم مَشْهَدَ، لأنها كانت مكان استشهاد الإمام علي بن موسى الرضا، وأقيم فيها ضريحه، فسميت مَشْهَدَ. وجاء في معجم دوزي أن المشهد: "صرح أو عمارة تضم قبر ولي من الأولياء"⁵².

ويُلاحظ أن ثمة استعمالين متطورين لكلمة مشهد، الأول: استعمال ابن بطوطة وهو الدلالة على القبر بعامة، والثاني الدلالة على قبور الشهداء من آل البيت خاصة، وهذان الاستعمالان مخالفان للمعنى المعجمي، ولم يرد أي منهما في المعاجم العربية القديمة.

ويُلاحظ هنا أن التطور الدلالي انتقل بالكلمة من معنى الجمع من الناس ومَحْضَرَهُم أو مكان اجتماعهم، إلى معنى البناء الذي يبنى على القبر أو القبر نفسه، أو القبر الذي يقام مكان استشهاد أحد أفراد آل البيت. والتطور الدلالي هنا هو انتقال مجال الاستعمال لعلاقة السببية بين وجود هذا القبر في هذا المكان واجتماع الناس فيه للتبرك بصاحبه أو اتخاذ العبرة مما صار إليه صاحب القبر بعد موته، فأخذ هذا القبر معنى اصطلاحيا. ولعل البداية في هذا التطور الدلالي كانت بإطلاق لفظ مشهد على القبر بشكل عام، ثم تطورت الدلالة لتختص بقبور المشاهير من الأولياء والصالحين، وفي المناطق الشيعية اختص بقبور الشهداء من آل البيت خاصة.

3.7 - الشَّيْخ

ويذكر وصوله إلى مقديشو في الصومال (2: 115): "ولما صعد الشبان إلى المركب الذي كنت فيه جاء إليّ بعضهم، فقال له أصحابي: ليس هذا بتاجر وإنما هو فقيه. فصاح بأصحابه وقال لهم: هذا نزيل القاضي، وكان فيهم أحد أصحاب القاضي فعرفه بذلك، فأتى إلى ساحل البحر في جملة من الطلبة، وبعث إليّ أحدهم فنزلت أنا وأصحابي وسلمت على القاضي وأصحابه، وقال لي: بسم الله، نتوجه للسلام على الشيخ، فقلت: ومن الشيخ؟

⁵¹ <https://www.vajehyab.com/?q=مشهد> .

⁵² دوزي، رينهارت، نكلمة المعاجم العربية، مادة شهد.

فقال: السلطان. ومن عادتهم أن يقولوا للسلطان الشيخ ."

والشيخ في المعاجم العربية هو من استبانته فيه السن وظهر عليه الشيب، أو هو بلغ من خمسين إلى آخره ، أو هو من إحدى وخمسين إلى آخر عمره⁵³ والجمع أشياخ وشيخان وشيوخ وشيخة وشيخة ومشيخة ومشيخة ومشيخاء ومشيخ.

ومعنى الشيخ هنا السلطان، ولعل استعمال الصوماليين لفظ الشيخ بهذا المعنى جاء من المعنى القبلي، إذ كان اللفظ يطلق على كبير القوم وكبير القبيلة وسيدها، والمعروف أن المجتمع الصومالي كان في ذلك العهد، وما زال إلى الآن، مجتمعاً قلياً، فكانوا يطلقون على زعيم القبيلة لقب الشيخ، وعندما توسعت حدود القبيلة وضمت إليها قبائل أخرى وتحولت إلى دولة انتقل لقب حاكم القبيلة معه إلى رئاسة الدولة أو السلطنة.

فالمعنى اللغوي هو التقدّم في السنّ، والمعنى الذي ورد في النصّ السابق هو السلطان، وهذا يعني أن المعنى تطور من الدلالة على الكبر في السنّ إلى الكبر في الرئاسة، ونوع هذا التطور هو نقل مجال الاستعمال لعلاقة المشابهة.

ومجال هذه الكلمة واسع جداً، فقد تطورت دلالة هذه الكلمة إلى دلالات ومعان كثيرة، منها العالم وكبير القوم ورئيس الصناعة والوزراء ورجال الكتابة والمحتسبون وبعض الملوك والكتاب من غير المسلمين والأجانب⁵⁴. وإنما جرى توسيع مجال اللفظ ليشمل كل هؤلاء باعتبار الكبر في العلم والفضيلة والمقام ونحو ذلك⁵⁵. ويذكر أن لفظ الشيخ ما زال إلى اليوم يُطلق على الحكام في بعض الدول العربية في الخليج.

⁵³ انظر: الجوهري، إسماعيل بن حمّاد، تاج اللغة وصحاح العربية (الصحاح)، وابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، والزبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس، مادة: شيخ.

⁵⁴ انظر: الفلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، ج 6 ، ص 17، والباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص 364.

⁵⁵ البستاني، بطرس، محيط المحيط، مكتبة لبنان، لبنان، (1987)، مادة: شيخ.

4.7 - الصَّوْمَعَة

يقول ابن بطوطة (1: 309) " ولهذا المسجد (يقصد المسجد الأموي بدمشق) ثلاث صَوَامِع ، إحداهما بشرقيّه،.... والصَّوْمَعَة الثانية بغربيّه،...والصَّوْمَعَة الثالثة بشماله".

ويقول أيضا في الحديث عن توسعة المسجد النبويّ زمن الأمويين (1، 354): "وجعل عمر (يقصد عمر بن عبد العزيز) للمسجد أربع صَوَامِع في أربعة أركانه".

وجاء في لسان العرب أن: "الصَّوْمَعَة من البناء سميت صومعة لتلطيف أعلاها. والصومعة: منار الراهب. قال سيويوه: هو من الأصمع يعني المحدد الطَّرْف المُنْضَم ... وصَوْمَعَة النصارى من هذا لأنها دقيقة الرأس". و: "الصَّوْمَعَة كجوهرة بيت للنصارى ومنار الراهب، وصَوْمَعَة النصارى بناء مرتفع حديد الأعلى، وهو بيت العبادة عند النَّصَارَى، ومُتَعَبِّد الناس"⁵⁶. ويقصد ابن بطوطة بالصَّوْمَعَة هنا مئذنة المسجد وهي موضع الأذان للصلاة، وهي المنارة.

والصَّوْمَعَة لفظة قرآنية وجاء في تفسيرها في قوله تعالى: "ولولا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَدَمَتِ صَوَامِعَ كَثِيرَةٍ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدٍ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا"⁵⁷، الصَّوْمَعَة : موضع عبادة، وهي بناء مرتفع منفرد حديد الأعلى، وكانت مُخْتَصَة قبل الإسلام برُهبان النَّصَارَى وِبِعِبَادَةِ الصَّابِئِينَ ثم استعملت في مئذنة المسلمين⁵⁸. وعلى هذا فإن هذه الكلمة تطوّرت دلالتها، من معنى بيت العبادة لرهبان النصارى والصابئة المرتفع المدبب الرأس، لتطلق على مئذنة المسجد. لكننا نجد أن الصومعة بمعنى المئذنة من الاستعمالات التي تنفرد به البيئة المغربية.

⁵⁶ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، والزبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس، مادة : صمع ، وانظر أيضا: النعيمي، سليم، ألفاظ من رحلة ابن بطوطة، مجلة المجمع العلمي العراقي، القسم الثاني، ص 38 .

⁵⁷ القرآن الكريم، سورة الحج، آية 40 .

⁵⁸ أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف (745 هـ) ، تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط1، دار الكتب العلمية ، لبنان، (1993)، ج6، ص 343 .

والتطور الدلالي هنا هو انتقال مجال الاستعمال للمشابهة في الشكل الخارجي في كل من الصومعة والمئذنة،

والمتمثل في رأس مدبب حاد يعلو كل منهما.

ويذكر أن الكلمة " الصومعة " و " الصوامع " تستعمل في بعض البيئات العربية المعاصرة، كبيئة بلاد الشام،

بمعنى مخازن الحبوب والغلل.

5.7- الكَنَاسَة

يقول ابن بطوطة في الحديث عن شبكة التجسس التي كان يقيمها سلطان الهند على الأمراء التابعين له

(3: 211) " ومن عادة ملك الهند أنه يجعل مع كل أمير كبير أو صغير مملوكا له يكون عينا عليه ويعرفه

بجميع أحواله، ويجعل أيضا جوارى في الدور يَكْنُ عيوننا على أمرائه، ونسوة يسميهن الكَنَاسَات يدخلن الدور بدون

استئذان ويخبرهن الجوارى بما عندهن فيُخبر الكَنَاسَات بذلك لملك المخبرين، فيخبر بذلك السلطان".

وجاء في لسان العرب⁵⁹: " الكَنَسُ: كسح القمام عن وجه الأرض. كَنَسَ الموضع يَكْنُسُهُ بالضم كَنَسًا: كَسَحَ

القمامة عنه، والمِكنسة: ما كُنِسَ به والجمع مَكَانِس. والكَنَاسَة ما كُنِسَ.

والمَكْنِيسُ: مَوْلَجُ الوحش من الظباء والبقر تَسْتَكِنُ فيه من الحرّ، وهو الكِنَاس. وهو من ذلك لأنها تَكْنُسُ

الرمل حتى تصل إلى الثرى. وكَنَسَتِ الظباء والبقر تَكْنِيسُ بالكسر دخلت في الكِنَاس "

ويفهم من كلام صاحب اللسان أن كَنَسَ يَكْنُسُ بالضم تعني كسح القمامة، وأما كَنَسَ يَكْنِيسُ بالكسر فتعني

الدخول في الكِنَاس. وأن أصل المعنى هو الكسح أي إزالة القمامة أو الرمل أو التراب. والذي يحترف كَسْحَ القمامة

ويمتهنها هو الكَنَاسُ ومؤنثه كَنَاسَة.

والكَنَاسَات اللواتي يتحدث عنهن ابن بطوطة هنا هن مَخْبِرَات يشكلن همزة الوصل بين الجوارى اللواتي يعملن

في بيوت الأمراء والمسؤول عن المخبرين.

⁵⁹ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، والفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، والرّبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس، مادة: كَنَس.

والكناسات جمع كناسة، من مادة كَنَس. وكناسة اسم مؤنث منسوب على وزن فَعَالَة للتي تحترف عمل كسح القمامة، وهذا الوزن يغلب على المهن ومن يمارس عملا معيناً على وجه الحرفة نحو: نجار وحمال وحداد وغيرها. وانتقال المعنى على هذا النحو يقوم على المشابهة بين ما تقوم به الكناسة من كسح للقمامة وإزالة الأوساخ، وبين ما تقوم به هذه المُخبرة من جمع للأخبار التي تعدّ سيئة مثل التآمر على السلطان أو مخالفة أوامره، فتلك تكسح القمامة للتخلص من ضررها وأذاها، وهذه تكسح الأخبار السيئة وتجمعها للتخلص من ضررها وأذاها. فالتطور الدلالي هنا انتقال مجال الاستعمال للمشابهة بين الكناسة الحقيقية وبين المُخبرة التي تدخل البيوت لتجمع الأخبار.

8. انحطاط الدلالة

لقد انحصر انحطاط الدلالة في مثال واحد:

1.8- المَلِك

يقول ابن بطوطة بعد أن يتوقف ثلاثة أيام مع أصحابه في مدينة مسعود آباد بانتظار موافقة السلطان على دخولهم بلاد الهند (3: 104): "وبعد تلك الأيام خرج إلى لقائنا القضاة والفقهاء والمشايخ وبعض الأمراء، وهم يسمون الأمراء مُلوكة، فحيث يقول أهل ديار مصر الأمير، يقولون هم: الملك".

المَلِك في اللغة هو ذو المَلِك وهو المالك، وهو أيضاً رأس السلطة الزمانية، ويجمع على مُلوك. و"المَلِك والمَلِك والمَلِك والمَلِك بمعنى⁶⁰. وقد ورد لفظ مَلِك في بعض الآيات القرآنية، مثل: "وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا"⁶¹، و" إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذِلَّةً ۗ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ " ⁶².

⁶⁰ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، والزبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس، مادة: ملك.

⁶¹ القرآن الكريم، سورة الكهف، آية 79.

⁶² القرآن الكريم، سورة النمل، آية 34.

والملك لقب يطلق على الرئيس الأعلى للسلطة الزمنية، ولم يُعرف أن أحداً من الحكام المسلمين تلقب بهذا اللقب بصفة رسمية في صدر الإسلام ولا في العصر الأموي، إذ اقتصر حينئذ على تلقب رأس الدولة بالخليفة وبأمر المؤمنين، والولاة الفرعيين بالعمال أو الأمراء؛ وكان الخليفة هو صاحب الكلمة العليا في جميع البلاد الإسلامية.

ولكن في العصر العباسي أخذ بعض الولاة يستقلون عن مركز الخلافة، وإن احتفظ معظمهم بتبعية اسمية لدولة الخلافة، كما استبد بعض رجال الدولة بالسلطة السياسية في مركز الخلافة نفسها دون الخليفة. وكان من أثر استقلال بعض الولاة من جهة واستبداد بعض الأمراء بالسلطة المركزية من جهة أخرى، أن ظهر لقب ملك الذي يحمل معنى السيادة العليا⁶³.

وقد عُرف لقب الملك في زمن البويهيين وفي زمن الأيوبيين والمماليك واستمر إطلاق هذا اللقب بمدلولاته المختلفة المعروفة، فصار يطلق إلى جانب السلطان والرئيس الأعلى للدولة.

وقد استعمل لفظ الملك سمة للولاة الفرعيين وأمراء الجيوش زمن السلاجقة، بعد أن شاع استعمال السلطان لقباً للحاكم الأكبر. ولما جاءت الدولة الأيوبية على أنقاض الدولة الفاطمية احتفظت بلقب ملك، فظل صلاح الدين يلقب بالملك، "وبعد ذلك صار لقب الملك يطلق على الولاة من أفراد الأسرة الأيوبية، بينما انفرد رب الأسرة بلقب السلطان مثله في ذلك مثل السلاجقة"⁶⁴.

وقد ظل لقب الملك يُطلق على الولاة والأمراء وأمراء الجيوش في مصر والشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، كما في الهند، لكن يبدو أن تلقب الأمراء بالملوك في الهند كان أسبق وأكثر رسوخاً ووضوحاً منه في مصر.

⁶³ الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص 497 .

⁶⁴ المرجع السابق، ص 499 .

ومعنى الملك الذي يذكره ابن بطوطة هنا هو الولاة والأمراء التابعون لحاكم أعلى منهم. وانتقال اللفظ إلى هذا المعنى الجديد، هو تطور رأسي، بمعنى أن دلالة اللفظة أصابها الانحطاط، فبعد أن كانت تدل على الحاكم المطلق، أصبحت تدل على الوالي أو الأمير أو الحاكم التابع الذي يُنعم عليه بلقب الملك من حاكم أعلى وأقوى منه.

ولعل السلطان كان يقصد أن تُبتذل كلمة الملك بعد أن اختار لنفسه لقب السلطان، وحتى يجعل الفارق كبيرا وواسعا بين لقبه "السلطان" واللقب الذي قد يلتبس بلقبه ويشترك معه في المعنى "الملك"، بالغ في إطلاقه على الأمراء التابعين له، فكثرت الملوك فابتُذلت اللفظ، ففي العادة لا يكون في المملكة غير ملك واحد، لكن مع وجود السلطان حاكما أعلى، وتعدد الملوك وكثرتهم انحطت دلالة الكلمة.

وفي العصر الحديث أصاب التطور هذه الكلمة مرة أخرى، فأخذت منحيين، الأول: الملك بمعنى الحاكم الفعلي الذي لا يتبع لأحد، أي الملك الذي يحكم ويملك كما في البلاد العربية، والمنحى الثاني: الملك الذي يملك ولا يحكم، كما في ممالك أوروبا، حيث إن مُلكية الملك اسمية فخريّة بروتوكولية، ويتولى السلطة الفعلية في الدولة رئيس الوزراء.

9. رقي الدلالة

لقد انحصر رقي الدلالة في مثال واحد أيضا:

1.9- السُّلطان

تتكرر كلمة السلطان كثيرا في رحلة ابن بطوطة، ففي حديثه عن السلطان محمد أوزبك يذكر السلاطين العظام في زمانه، يقول (2: 228): "وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا وعظماؤها، وهم: مولانا أمير المؤمنين... وسلطان مصر والشام، وسلطان العراقين، والسلطان أوزبك هذا، وسلطان بلاد تركستان وما وراء النهر، وسلطان الهند، وسلطان الصين".

والسلطان في اللغة من السَّلاطَة بمعنى القهر، والسلطان قدرة المَلِك، وقدرة من جُعِل ذلك له، وإن لم يكن ملكاً، ومن هنا أُطلق على الوالي، ويقصد به سلطة الحكومة والوالي أو الحاكم، وتجمع على سلاطين⁶⁵. والسلطان الذي يتحدث عنه ابن بطوطة هو الحاكم المستقل بحكم مملكته صغرت أو كبرت ولا يتبع لأحد من الملوك أو الحكام.

ولعل من القضايا المهمة العلاقة بين دلالة السلطان ودلالة الملك، ويُلاحظ أن دلالة السلطان قد تلتبس بدلالة الملك، بسبب اتحاد عناصر المعنى بينهما وتقاطعها حتى تصل إلى درجة الترادف، فنحن لا نكاد نلمح فرقا لغويا واضحا في الاستعمال العربي القديم بين دلالاتي السلطان والملك كما لاحظ ذلك الدكتور إبراهيم أنيس⁶⁶، فكان كل من اللفظين يُطلق على صاحب الولاية والحكم مهما صغر شأنه، غير أن أبا هلال العسكري⁶⁷ يلمح فرقا دقيقا بين دلالاتي اللفظين، ويرى أن لفظ الملك يختص بالزعيم الأعظم، أما السلطان فيطلق عليه وعلى غيره. ويوضح الفلقشندي⁶⁸ ذلك بأن دلالة الملك تختص بالرئاسة والزعامة والمُلْك، بمعنى أنها تختص بالمستوى الأول من الحكم أو أن لفظ المَلِك يطلق على صاحب الشأن الكبير من الولاية، في حين أن دلالة السلطان عامة تشمل اليسير من السلطة والحكم مثل سلطة الرجل على أهل بيته وسلطة القاضي، وتتسع لتشمل السلطة الزمنية والولاية العامة والحكم.

ومن الجدير بالذكر أن المسلمين استعملوا في بداية دولتهم لقب الخليفة وأمير المؤمنين، ولم يستعملوا أيّاً من اللفظين، الملك والسلطان، إلا بالمعنى اللغوي، وظل المسلمون يستعملون لقب الخليفة وأمير المؤمنين في عهد بني أمية، وعهد بني العباس، وكان الخليفة هو صاحب الكلمة العليا في جميع البلاد الإسلامية.

⁶⁵ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، والزَّبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس، مادة: سلط.

⁶⁶ أنيس، إبراهيم، دلالة الألفاظ، ص 158 .

⁶⁷ العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت 395 هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، (بلا تاريخ)، ص 188 .

⁶⁸ الفلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، ج 5، ص 448.

وعلى الرغم من " أن المسلمين كانوا قد عرفوا فكرة تعدد الخلفاء ففي أواخر القرن الثالث الهجري، وأوائل القرن الرابع الهجري واستعملوا لقب الخليفة في الشمال الإفريقي وفي الأندلس، بالإضافة إلى العباسيين في بغداد"⁶⁹، فإن أحدا من رجال الدولة العباسية الذين استبدوا بالسلطة السياسية في مركز الخلافة نفسها لم يتلقب بالخليفة، ولعل فكرة انتساب الخليفة إلى قبيلة قريش والنظر إلى الخلافة باعتبارها رابطة جامعة مشتركة بين كل المسلمين من مختلف الأمم والأعراق من ناحية، وهوان الخليفة وضعف سلطته جعلت هؤلاء المتغلبين على الحكم يزهدون بلقب الخليفة ويفضلون لقب السلطان الذي يستشعرون معه عظمة وقوة لا يستشعرونها مع غيره .

ويذكر القلقشندي⁷⁰ أن الخليفة العباسي هارون الرشيد هو أول من أطلق لقب السلطان في التاريخ الإسلامي على وزيره خالد بن برمك أو جعفر بن يحيى البرمكي بالسلطان، وأن البويهيين اتخذوا لقب سلطان سمة عامة لهم بعد تغلبهم على الخلفاء واستئثارهم بالسلطة دونهم.

وقد دخل لقب السلطان في طور التفريق بين الولاة المستقلين بولاياتهم والولاة التابعين لغيرهم، فصار السلطان لقباً عاماً على الولاة الذين يستقلون بولاياتهم، وتضرب النقود بأسمائهم تمييزاً لهم عن غيرهم من الولاة غير المستقلين، ثم أصبح السلطان سمة للحاكم الذي يستقل بمملكته، ويكون غير خاضع لأحد، في حين صار الملك حاكماً تابعاً للسلطان يعينه حاكماً على إحدى الولايات أو الأقاليم⁷¹. ولعل أول من تلقب بلقب سلطان بهذه الصفة هو محمود بن سُبُكْتِكِين الغزنوي (ت 1030م) وأشتهر بالسلطان محمود الغزنوي⁷². وبعد ذلك انتقل هذا اللقب إلى سائر الممالك الإسلامية؛ إلى السلاجقة والأيوبيين والمماليك والدولة الإسلامية في الهند وإلى الدولة العثمانية. وإذا وضعنا معنى كلمة السلطان اللغوي بإزاء معناها الذي صارت إليه زمن ابن بطوطة، نجد أن دلالة

⁶⁹ بركات، مصطفى، الألقاب والوظائف العثمانية، ص 29 .

⁷⁰ القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، ج 5، ص 448، و ج 9، ص 403، 404 .

⁷¹ الكرمل، أنستانس ماري، النقود العربية وعلم النُميات، المطبعة العصرية، القاهرة، (1939)، ص 122 .

⁷² الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص 324 ومكاريوس، شاهين، تاريخ إيران، دار الأفاق العربية، مصر، (2003)، ص 114، نقلاً عن كتاب: بركات، مصطفى، الألقاب والوظائف العثمانية، ص 34.

الكلمة الاجتماعية ارتقت من صاحب سلطة أيا كانت هذه السلطة، إلى الحاكم المستقل بحكم مملكته ولا يتبع لأحد من الحكّام.

ويُلاحظ أن التطور الدلالي لمعنى السلطان استمر في العصور اللاحقة، فوفقاً لرؤية العثمانيين فإن السلطنة لا تكون إلا لمن يدينون بنتيجانهم إلى سيوفهم وأسلافهم، وما عداهم لا يستحقون لقب السلطان، ويقول السلطان سليم الأول لظومان باي آخر سلاطين المماليك حينما قبض عليه وقبل شنقه في حوار بينهما: "السلطنة لا تكون ولا تليق إلا برجل يكون أبؤه وأجداده سلاطين وأنت وقابئثاي الذي هو أعظمكم والغُوري، ما أسماء آبائكم؟ ومن أين لكم السلطنة؟ ومن أين لكم الإمارة؟ كلكم أولاد نصارى وأنتم مماليك بلا عتاقه حتى بقيتم من قلة عقلكم وقلة أدبكم تعملون الرجل منكم سلطاناً ثم تعزلونه وتقتلونه، أي يد لكم حتى تعزلوا وتولوا وتقتلوا وتطولوا أيديكم على السلاطين" ⁷³.

ثم تطور اللفظ، مرة أخرى، زمن العثمانيين، فأصبح السلطان مرادفاً للإمبراطور؛ وهو الذي يضم أراضي وشعوباً أخرى إلى شعبه وأراضيه وتكون له دولة مترامية الأطراف. وفي العصر الحديث اختفى لقب السلطان تقريباً باستثناء حالات محدودة مثل سلطان عُمان وسلطان بروناي، وظل موجوداً بوصفه تعبيراً عن حالة تاريخية واستمراراً لها دون أن تحمل الكلمة المعنى الذي استعملت فيه، واقتصرت دلالتها على معنى الملك أو الحاكم.

10. الخاتمة

بعد التطواف في الألفاظ التي أصابها التطور الدلالي نسوق في هذه الخاتمة بعض النتائج العامة التي خلص إليها البحث، وهي:

⁷³ ابن زنيل، أحمد الرمال (ت 960 هـ)، آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني، ط 2، تحقيق: عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (1998)، ص 244.

1. أن معظم أشكال التطور الدلالي في هذا البحث أخذت منحى التضييق والتخصيص، والتوسيع والتعميم، وتغيير مجال الاستعمال.
2. أن التطور الدلالي في بعض أمثله يقوم على ألفاظ قرآنية أو معان إسلامية عامة، كما في العزيز والأعزة والفقير والرباط .
3. أن بعض الألفاظ تأثرت بالاستعمال المغربي، بما يخالف الاستعمال المشرقي، كما في استعمال كنيسة للدلالة على بيوت العبادة عامة، في حين ينحصر استعمالها المشرقي ببيوت عبادة النصارى، واستعمال صومعة للمئذنة والرباط للضريح.
4. حركة التصوف كانت سائدة في ذلك العصر وكانت تمثل الإطار الفكري في العالم الإسلامي، فجاءت بعض الألفاظ متأثرة بأفكار التصوف، كما في الفقير والرباط والمشهد.
5. أن التطور الدلالي لم يكن يسير بوتيرة واحدة في كل البيئات العربية التي شملتها الرحلة، ولم يكن يعبر عن المعاني الدلالية بالألفاظ نفسها، بل كان يحصل بشكل متفاوت أحيانا، ومتغاير أحيانا أخرى، كما في اختلاف دلالاتي "مولانا" و " وسيدي" في الهند عنهما في مصر والشام، ولعل السبب في ذلك هو اتساع البيئات اللغوية التي جال فيها ابن بطوطة، فضلا عن اختلاف النظم السياسية فيها واختلاف المؤثرات الاجتماعية والثقافية.
6. تطوّر بعض الألفاظ يكشف أبعادا لغوية متعددة، كما في فرض سلطان الهند استعمال لفظ الأعزة للمهاجرين من الكفاءات الإدارية والعلمية الذين يأتون إلى الهند للعمل فيها، وحظر إطلاق لفظ الغريب عليهم. ففي استعمال الأعزة توظيف اللغة في مشروع سياسي ليستقطب الكفاءات التي تحتاج إليها بلاده ليقوم بمشروع نهضة سياسي. وفيه توظيف اجتماعي لإدماج المهاجرين في المجتمع الهندي دون أدنى

تميز ضدھم، وفي فرض استعمال لفظ الأءزاء ومنع استعمال لفظ الغرباء تخطيط لغوي يوجه سلوك

الناس وتفكيرهم بشكل إيجابي في كيفية التعامل مع شريحة من شرائح المجتمع.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- أنيس، إبراهيم، دلالة الألفاظ، ط 5 ، مكتبة الإنجلو المصرية: القاهرة، (1984).
- أولمان، ستيفن، دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال بشر، مكتبة الشباب: القاهرة، (1975).
- الباشا، حسن ، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار الفنية للنشر والتوزيع: القاهرة، (1989).
- بركات، مصطفى، الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب: القاهرة، (2000).
- البستاني، بطرس، محيط المحيط، مكتبة لبنان: بيروت، (1987).
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله، تحفة النُّطَّر في عجائب الأمصار وغرائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، تحقيق ، عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية: المغرب، (1997).
- الجوهري، إسماعيل بن حمّاد (393هـ)، تاج اللغة وصحاح العربية (الصحاح)، ط 2، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين: لبنان، (1979).
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت 852 هـ)، نزهة الألباء في الألقاب، ط 1، تحقيق: عبد العزيز بن محمد السديري، مكتبة الرشيد: الرياض، (1989) .
- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف (745 هـ)، تفسير البحر المحيط ، ط 1، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية: لبنان، (1993).
- دوزي، رينهارت، تكملة المعاجم العربية، ترجمة : محمد سليم النعيمي، دار الرشيد: بغداد، (1980).
- الرَّيْدي، محمد بن محمد، (1205 هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق، علي شيري، دار الفكر، (بلا تاريخ).
- ابن زنبيل، أحمد الرمال (ت 960 هـ)، آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني، ط 2،

تحقيق: عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة، (1998)، ص 244.

الزيادي، حاكم مالك، الترادف في اللغة، دار الرشيد: بغداد، (1980).

ابن السكيت، يعقوب بن إسحق (ت 244 هـ)، إصلاح المنطق، ط 4، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد

السلام محمد هارون، دار المعارف: مصر.

الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك (ت 310 هـ)، ط 2، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار

المعارف: مصر، (بلا تاريخ).

عبد الجليل، منقور، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب: دمشق

، (2001).

العجم، رفيق، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، ط 1، مكتبة لبنان: بيروت، (1999).

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت 395 هـ)، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم

والثقافة: مصر، (بلا تاريخ).

عمر، أحمد مختار، علم الدلالة، ط 5، عالم الكتب: مصر، (1998).

فندريس، جوزيف، اللغة، تعريب: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الإنجلو المصرية: القاهرة،

(بلا تاريخ).

الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (817 هـ)، القاموس المحيط، دار الحديث: مصر، تحقيق :

أنس محمد الشامي وذكريا جابر أحمد، (2008).

قدور، أحمد، مبادئ اللسانيات، ط 3، دار الفكر: دمشق، (2008).

القلقشندي، أحمد بن علي (ت 821 هـ) ، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، دار الكتب المصرية: القاهرة،

(1922).

الكرملی، أنستانس ماری، النقود العربية وعلم الثمّيات، المطبعة العصرية: القاهرة، (1939).

مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، ط 4، مكتبة الشروق الدولية: مصر، (2004).

محمد ، دهخدا، فرهنگ دهخدا (معجم دهخدا)، دار أمير كبير: تهران، (2004).

معین، محمد، فرهنگ معین (معجم معین) ، ط 12، دار أمير كبير: تهران، (2004).

مكاربوس، شاهين، تاريخ إيران، دار الآفاق العربية: مصر، (2003).

ابن منظور، محمد بن مكرم (711 هـ) ، لسان العرب ، ط 3 ، دار صادر: لبنان، (1414هـ).

الدوريات

النعمي، سليم، ألفاظ من رحلة ابن بطوطة، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الرابع والعشرون،

1974، القسم الأول، (ص 19 - ص 50).

النعمي، سليم، ألفاظ من رحلة ابن بطوطة، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الخامس والعشرون،

1974، القسم الثاني، (ص 3 - ص 48).

النعمي، سليم، ألفاظ من رحلة ابن بطوطة، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد السادس والعشرون ،

1975، القسم الثالث، (ص 33 - ص 70).

المواقع الإلكترونية

1- خليل ، صبري محمد ، مفهوم التمييز الإيجابي في الفكر السياسي والاجتماعي المقارن.

<http://drsabrikhalil.wordpress.com/2014/01/17/مفهوم-التمييز-الاجابي-في-الفكر-السياسي/>.

2- قيام + كرد <http://www.vajehyab.com/?q>

3- https://ar.wikipedia.org/wiki/خراسان_الكبرى

4- <https://www.vajehyab.com/?q=مشهد>

